بمناسبة ذكرى مجزرة حلبجة

عن " المكان العجيب " وذلك اليوم من آذار !

يوسف أبو الفوز

بكل وداعة تنام مدينة حلبجه في حضن سلاسل جبال (هورامان) الشاهقة وجبال (بالامبو) وجبال (شنروي) وتتطلع بخفر الى سهل شهرزور الخصب وبحيرة دربندخان . موقعها القريب الى الحدود الايرانية (16 كم) جعلها ممرا تأريخيا للقوافل التجارية ، ومسرحا لنشاط المهربين ، فنمت اقتصاديا . تعددت الروايات حول اصول اسمها ، لكنها سواء كانت تعني "فاكهة الخوخ" (باللغة الكردية "هه لوجه") أو "المكان العجيب" حين اطلق التسمية احد القادة الفرس الذي مر من هناك وصاح (عجب جا) ، وقد تكون تصغيرا من اسم مدينة حلب السورية ، فأنها نمت كمركز تجاري بين اهم المدن العراقية والايرانية وثم التركية ، فهي تبعد عن مدينة السليمانية مسافة 83 كم وعن العاصمة بغداد مسافة 286 كم ، فلا عجب ان يكون أحد نواحيها يحمل اسم "مخزن التمر" (بالكردية خورمال) .

أن أكتشاف المقابر القديمة التي يعود تأريخها الى ما قبل عصر الاسلام بقرون يشير بدون جدال الى تأريخ المدينة العريق ، فقد كانت جزءا من اراضي الامبراطورية الفارسية ، وليس بعيدا عنها مرت جيش الاسكندر المقدوني الى بلاد فارس ، وصارت موطنا للقائد الاسلامي ابو عبيدة الجراح (توفي عام 639 م) الذي حملت أحد قصبات مدينة حلبجة اسمه (عبابيلي) بتصرف لغوي كردي ، ثم جاء الحكم العثماني وتوالت الانظمة ، وظلت المدينة عبر كل الحقب تزهو بجمالها الطبيعي ومزدهرة بمياها الوافرة ومناخها المعتدل صيفا حيث تعد منطقة شلالات "احمد آوى " احد اهم المصايف في المنطقة .

***

مدينة حلبجة عرف انها كانت موطنا لعشيرة الجاف ، اذ سكنوها حوالي 1700 م ، بعد صراع مرير مع عشائر اخرى ، وكان لاشراف من هذه العشيرة دور متميز في ادارة المدينة ، في مجالات القضاء والتعليم والبلدية والامن في زمن الحكم العثماني والانكليزي وبرزت منهم اسماء عديدة ، هكذا نتعرف الى اسم"عدلة خانم " التي تولت شؤون ادارة المدينة في الاعوام 1909 وفي الاعوام 1919 - 1923 ، وهذا له اكثر من دلالة ، فالمرأة الكردية لم تكن حبيسة البيت . المدينة لم تكن حكرا على عشيرة واحدة وعرفت التعايش بين مختلف الاقوام والديانات ، فالى جانب المسلمين عاش "الكاكائيون " ، فلهم اضرحتهم وقبورهم الخاصة ، وحين بدأ اليهود في الكثير من مناطق العراق وايران يتعرضون الى المضايقات توجهوا الى مدن كردستان ، ومنها حلبجة ، حيث عاشوا في حماية المسلمين وكانت بيوتهم ملاصقة لبيوت المسلمين، ومارسوا طقوسهم الخاصة في كنيسهم الواقع في حييهم المسمى بـ (حي اليهود) الذي يظل يحمل اسمه طويلا، وتمتع اليهود بحرياتهم الدينية وكان لهم مقبرتهم الخاصة ومحل خاص لذبح الحيوانات ومارسوا بحرية كاملة نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، لحد حصول الكثير من الزيجات المشتركة مع عوائل مسلمة ، لكن حكومة صالح جبر الملكية افسدت كل شيء بأسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الذين اجبروا لمغادرة العراق الى اسرائيل .

***

اذ عرفت المدينة نشاطا اقتصاديا واجتماعيا ، فهذا صاحبه حراك ثقافي ملموس . من ابناء المدينة عرف جيدا الكثير من الشعراء والفنانين والمناضلين . ان موقع المدينة السياحي ووجود الكثير من الاماكن السياحية ، التي تطوق المدينة ، مثل كولان، ، كاني شيخ ، كاني كويرة، عقبابيلي ، احمد آوا وغيرها ، ساعد على تطور حركة الفن ، فظهر العديد من اسماء المطربين مثل احمد مشكي فروش، خولة شيرالي،عثمان هورامي، حمه قوتو واخرين .

الادب وخصوصا الشعر له مكانته ايضا ، ولا احد يستطيع المرور دون التوقف عند اسم مثل الشاعر الكبير

مولوي (1806-1882) م ، الذي أحبه الكرد وأعجبوا بشعره الصوفي والوطني فحفظوه وتداولوه بينهم . ولا يمكن ذكر اسم حلبجة ، دون ذكر اسم أبنها الشاعر الشيوعي عبدالله كوران (1904 – 1962) ، الذي لم ينس يوما انه ابن تلك الجبال ، التي انجبت شخصيات صارت اعلاما مثل شيخ بابا رسول وشيخ رشيد عبابيلي واخرين ومن الشعراء نالي وحمدون . عبد الله كوران المناضل الذي عرفته سجون الانظمة العراقية ، وعاش حياة معاناة قاسية ، صار شاعر كردستان والعراق ، ومَعلما بارزا في مدرسة الشعر الكردي ، حيث نبذ وعن معرفة ودراية التقليد والتكرار، وهجر العروض الخليلي، وامتطى صهوة الحداثة بايقاع ومضمون جديدين ، فصار شعره انسانيا يجد طريقه بسهولة لعرض هويته الكردية ـ العراقية ـ الانسانية :

أخي العربي

ياذا العينين السوداوين

مُرّاً كان نصيبك

مُـرّاً كان نصيبي

قد جرعنا المرارة من كأس واحدة

فأضحت أخوتنا عسلاً شهيّا

***

في ايام سنوات الكفاح المسلح ، ضد النظام الديكتاتوري المقبور ، كانت حلبجة ملاذا للمقاتلين الأنصار من كل الاحزاب السياسية المعارضة لنظام صدام حسين . الانصار الشيوعيون يجدون في حلبجة ملاذهم الامن ، في بيوتها يشعرون بالدفء ، يشعرون أكثر بالانتماء للوطن الغارق في لجة الظلم والظلام . عبر حلبجة وقصباتها وقراها ، وبالف طريقة وطريقه ، كانت تصل المعلومات عن نشاطات اجهزة النظام ومعاناة جماهير الشعب ، ويتسرب المناضلون الاسطوريون الى عمق مدن العراق ليزرعوا الامل بين صفوف الناس . تصل المعلومات والصحف والمجلات والادوية وايضا المواد التموينية . من هناك ، تسسلل الشهيد البطل عبد الحسين كريم كحوش الى يومه المجيد حيث ، بعد القاء القبض عليه ، رفض اعطاء اي معلومات لجلاديه ورفض حتى الاقرار بأسمه الصريح وتمسك بالاسم في هويته المزورة ، من هناك مرت البطلة رضية السعداوي لتساهم في نسج خيوط شمس الايام القادمة ، وتبعهم اخرين عديدين . في حلبجة التي تتحول ليلا الى مدينة انصارية ، تكون تحت قبضة قوات الانصار، تجد صباياها اكثر اشراقا وهن ينطرن المقاتلين الاسطوريين الهابطين من الجبل معفرين بتراب المجد والبهاء ، ويقف فتيانها حراسا متطوعين لتنبيه الانصار لاي طاريء من العدو الغادر . في ليل حلبجة تجد الرفيق يوسف عرب يدور بين البيوت يوزع بيانات طازجة موقعة بأسم الحزب الشيوعي ، ونجد علي كلاشينكوف يدقق معلومات ما ، ومحمود ديكتاريوف يسأل عن اسعار مواد تموينية ويرتب اجراءات وصولها سالمة .

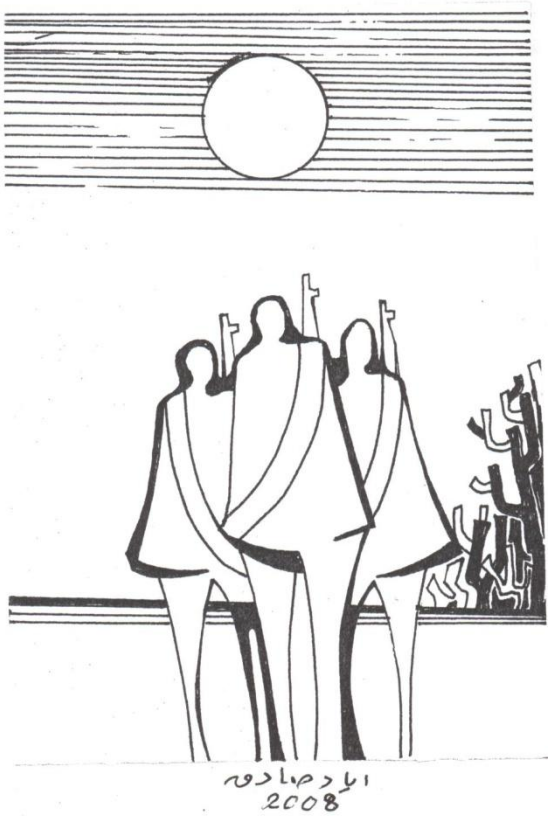

***

الزمان مساء 15 اذار . القائد الشيوعي اسطه علي ، كما يعرفه الناس ، او علي فتاح درويش (مواليد 1936) كما مسجل في بطاقته ، يترك محلة "كاني عاشقان" المرتفعة نسبيا خلفه وينحدر الى اسفل المدينة ، ليؤمن مبيت مجموعة انصارية تقرر ان تقضي ليلتها هناك . لم يتركه النظام الديكتاتوري يهنأ بحياته كموظف في الاصلاح الزراعي في مدينة السليمانية ، فاضطرته المضايقات المستمرة الى ترك الوظيفة . امتهن بناء البيوت التي لا يزال بعضها شاخصا يحمل بصمات فنه . ثم حين زادت المضايقات لجأ الى مدينة حلبجة . تقول أبنته شادمان :

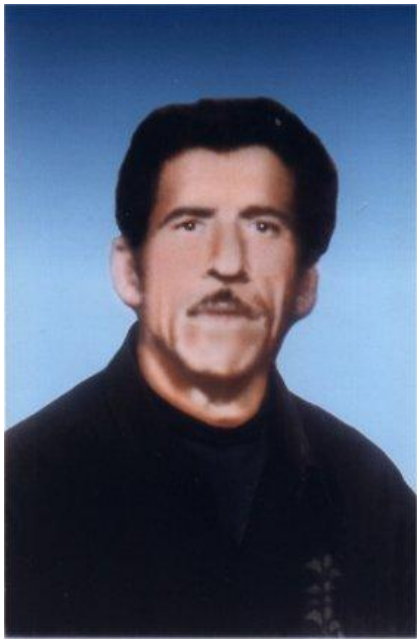

ـ اختار حلبجة لانه فيها وجد نفسه بين عشيرته ، وايضا قريب الى الى الجبل حيث فصائل الانصار فكتسبه هذه مجتمعة المزيد من القوة .

يوما التقيته في موقع من جبل سورين ، كان يحمل بريدا حزبيا من المدينة ، وشحنة من تبرعات عينية . كان مفعما بالنشاط ، سأل عن اجواء العمل ، وابدى انزعاجه وتذمره من بيروقراطية لمسها عند البعض في العمل ، لكنه مع كل ذلك كان متفائلا بالمستقبل . كان عجلا للعودة لان ابنته في انتظاره :

ـ سوف لا تنام دون ضمان عودتي !.

***

كانت حلبجة الغافية بوداعة بين سهل شهرزور وسلاسل الجبال ، تستقبل يوما أخر ، حين استفاقت نهار 16 أذار على مشاهد يوم دموي ، سادي ، من قبل نظام ديكتاتوري شوفيني لا يعبأ بحياة الانسان . تقول لنا شادمان علي فتاح التي كانت هناك يوم الفاجعة :

ـ بدأ القصف المدفعي أولا وبدون انقطاع واستمر طويلا فلجأ اهل المدينة الى الملاجيء المهيأة مسبقا ، ثم في منتصف النهار بدأت الطائرات تلقي بحممها . لم نعرف في البداية انها أسلحة كيمياوية.

بعد انتهاء الاحداث ، تبين أن 16 طائرة حربية مزينة بنجوم الوحدة العربية القت ذلك اليوم ، خليطا من غاز الخردل والاعصاب الذي غطى سماء المدينة بسحابة صفراء كثيفة من الغازات ! وخلال دقائق معدودة قضي على خمسة آلاف مواطن بريء من سكان مدينة حلبجة ، جلهم من النساء والاطفال والشيوخ ، قضوا جميعهم خنقاً بالغازات بينما أصيب عشرة آلاف غيرهم، في ابشع

مجزرة ابادة جماعية (جينوسايد) بحق الشعب الكردي اعدها صدام وعلي حسن المجيد واخرين من قيادات النظام المجرم .

كان نظام صدام حسين يريد الانتقام من مدينة حلبجة ، هذه المدينة المتمردة دائما ، فليس عبثا ان رأس النظام المجرم صدام حسين المقبور هو الذي اشرف بنفسه على إعداد خطة الهجوم على مدينة حلبجة ، حيث زار صدام مدينة كركوك قبل يومين من بدء الهجوم والتقى هناك القيادة العسكرية التي أعدت خطة الهجوم ومن ضمنهم المجرم علي حسن المجيد الذي نال لقبه الاشهر : "علي كيمياوي" .

***

فجر يوم 17 اذار 1988 غادرت شادمان مع اخيها ئالان تبحث عن والدها ، الذي لم يعد من مهمته ، كان اخبرهم انه ذاهب لتفقد رفاقه المختبئين في بيت أسفل المدينة . قبل ان يغادر ، لم ينس ان يمسك بكتفي ابنته الكبرى ليشد عليهما ويوصيها :

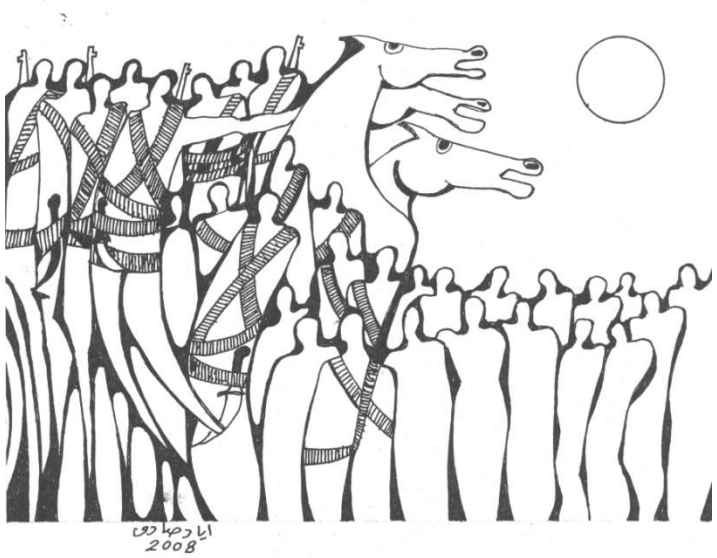

ـ ان لم اعد ، فأنت مسؤولة عن اخواتك واخيك !

كانت شوارع المدينة ذلك اليوم ساكنة . موحشة . تقول لنا شادمان :

ـ حين صرنا وسط المدينة المهجورة بدأنا نشم رائحة غريبة ، لم تكن كريهة. ذهبنا الى حارة (كاني قولكا) ، التي كان المفترض ان يذهب أبي اليها ، وهي تبعد مسيرة عشرين دقيقة تقريبا ، وبدأت المفاجآت المخيفة . شاهدنا جثثا ممددة في كل مكان . الوجوه مبيضّة وكأنها مرشوشة بطحين ، وبعضها مسود . كان هناك اناس يحتضرون ويئنون بألم . كان المشهد فظيعا.. أصابنا ذهول عجيب وخرس تام .

خلال متابعتها لتحركات قادة الثورة الفسطينية في بيروت ، كانت الاقمار الاصطناعية الامريكية تصور الفضلات والازبال ، فأستدل من الصور الدقيقة لاعقاب السجائر على وجود بعض الشخصيات المطلوبة . يومها صمتت القوى الكبرى ازاء الجريمة البشعة ، لم تستطع ان ترى صور الاف الشهداء من الاطفال والنساء والشيوخ الممددين في الشوارع المكشوفة، لم تستطع ان ترى الشهيد

عمر خاور ممددا عند عتبة بيته وهو يحتضن حفيده . فيما بعد ، حين تطلبت اللعبة السياسية كشف جرائم نظام الديكتاتور صدام حسين ـ خنزيرهم ! ـ ، وزعت امريكا صورا خاصة لجريمة حلبجة وارتفعت فجأة بيد المتظاهرين ضد احتلال الكويت !

***

عند كل الصباحات الندية ، نجمتنا تأتي . تحمل كل الاسماء !

ـ هل أنت معي ؟

معك ... معك ايتها البهية ، أني أسالك عن الاهل ، الاحبة والاصدقاء

عن شوارع وصبايا وافياء

عن مطر اول تغتسل فيه المحبة ،

تندى له كل الاشياء

مثل الشوق طافح بالهجس والانتماء !

***

عن تلك القمم الشامخة المكسوة بالثلج ، والسهوب الخصبة ، غنى بعذوبة المطرب " ابراهيم محمد الخياط" من كلمات الشاعر الشيوعي كوران :

تحت السماء الزرقاء

جنب القمم المكسوة بالثلوج

لم أر احد بمثل جمالك

انت وانت فقط !

كان كوران يتغزل بكردستان ، بمدينه حلبجه ، التي هاجمتها طيور الشر الحديدية وعكرت صفاء سمائها بالحقد الشوفيني الذي امطر سيانيدا وخردل . لم يكن امام الطاغية من حل للأنتقام من بأس مدينة حلبجة وأهلها الاحرار وتأريخها المشرق سوى الاسلحة المحرمة دوليا . تراجعت ذكريات الكرد عن قسوة الضابط السفاح " الزعيم صديق مصطفى " امام بشاعات وسادية " المهيب صدام" ، لكنهم لم ينسوا الامل ، فالمستقبل للشعوب اما الطغاة ـ ودائما ـ لهم مزبلة التأريخ . الشاعر عبد الله به شيو ظل يصرخ بشعبه ، باحفاد الاريين والميديين:

الطوفان والعواصف تداف في المروج و الاشجار،

لاتحزن -

من تحت، في الوديان،

أعشاب جديدة و براعم تنمو !

كتب في فجر 16 اذار 2012

*** التخطيطات للفنان الراحل أياد صادق**

***طريق الشعب العدد 147 الأحد 18 أذار 2012**